القصص

هواجس

بقلم حبيب الزحلاوى

قلت لصديق : لك الله من رجل غريب الأطوار ! لقد أضفتنا الليلة ودعوتنا الى تناول العشاء معك ، فأين المطعم وأصناف الطعام المطبوخ من هذه الحانة والزجاجات والأقداح « والمزات » آليت على نفسك مخالفة المألوف واتباع هوى النفس وبداواتها فى كل شىء ؟؟

— : خل عنك ياصاح الملاحظات والمعارضات لأننا فى ليلة خمر وانتهاب لذة ، هيا أيها الرفاق الى الأقداح الدهاق نقرعها ، والى الزجاجات نفرغها فى أجوافنا ، فتمشى فينا الحميا ، فتدور رؤوسنا فتسابق الدورات الزمنية ، وبذلك نطوى الصفحة القاتمة من تاريخ الحزن الماضى وعقابيله المؤلمة ، ونستقبل حياة جديدة بنفس مشعشعة وفرحة وضاءة

— أى حزن تعنى ؟ لأن أحزان هذا العصر تشملنا من كل صوب وتغمزنا كل مغمز ! !

على رسلكم أيها السادة ، جئنا لنشرب ونطرب لا لنتزمت ونتفلسف ، لندع عنا تقمرات صاحبنا هذا الذى يود مسابقة الدورة الزمنية ليطوى الحزن وعقابيله ! ! أما أنا فوالله العظيم لا أعرف كلمة عقابيل هذه ولا سمعت بها ، انما أعرف ماركات زجاجات الوسكى كلها ، وأتذوق شرابها وأميزه ، وأحسن الفتك بأفراخ الحمام والدجاج ، ولا أتورع عن البطش بهذا الديك الرومى نكاية بفنزيلوس

وقال آخر : اشربوا واطربوا أيها الرفاق ، فوالله ما عرفت سر عجيبة السيد المسيح الأولى وقد حول الماء الى خمر ، إلا وقتما صرت أنكر قول الحكيم سليمان : « قليل من الخمر يفرح قلب الانسان »

— ليس الحق فى جانب سليمان الحكيم ، لأن القليل من الخمر يفرح القلب الضعيف . أما الكثير منه والعبّ الوفير من ذوبه الذهبى فيحيى العقل والقلب والروح ! ! !

— راعوا أيها الاخوان حرمة وسدانة الحانة التى أنتم فيها وصونوا ألسنتكم عن الاستشهاد بالآيات وذكر العجائب فى مكان آيته الكبرى خمرته البكر ومعجيزته الغادرة ، دعوة صاحبنا اليه ، وأنا الذى تعرفنى حانات المدينة كلها ، ولا تجهانى إلا هذه البؤرة التى لا يسكنها سوى شيطان مثله ليتوارى عن أعين الناس

— صه أيها الخبيث ولا تحاول نبش أسرار الناس ، فقد يقودك الحظ الى هذه الحانة فترى الهناء يبسط أجنحته عليك وحدك ، عليك وحدك ، أفهمت أيها الخبير الفنى بحقوق الاتصال ؟؟

كلا لم أفهم بعد ! ! إنما يبدو لى أن مفتاح سر تعاطيك المسكر والتدخين فى شهر مغلوم ثم انقطاعك عنهما ، انما هو مدفون فى هذه الحانة التى لا يعرفها سوى الراسخين فى علم التستر والتخفى

ضحك الرفاق لهذه المداعبة الظريفة وسأل أحدهم الداعى قائلاً : ما معنى أنك لا تشرب الوسكى إلا من ماركة « كنادیان » ولا تدخن السجاير إلا من ماركة « لكى ستريك » ؟ وسأل الثانى : لماذا تندّ الليلة عن الشرعة الشاذة التى اشترعتها لنفسك فى الخمر والتدخين وموعد تعاطيك إياهما لم يئن بعد ؟ وقال الثالث : أحسب أن دعوة الليلة إنما هى لتوديع الشباب والكهولة وقد ذبل ويبس منها الورد والثمر والغصون

فصاح صائح : اسكتوا اسمعوا ، لنشرب هذه الكأس على ذكر داعينا وقد ودع الخمسين من عمره السعيد منذ عشر سنوات خلت . . . فقاطعه آخر وقد انتصب على الكرسى قائلاً : بل نشرب نخبه وقد عاد إلى العاشرة من عمره لأن التقدم بعد الخمسين إنما هو نكوص وتراجع ! ! ! وهكذا كان الرفاق بين ضاحك وناقد وظريف لطّف دبيب الخمرة ذوقه ، وبين صامت يشتف ما فى الكأس روية ، ومالئها بترعة ، هذا يشرب بلا انقطاع ،

وذاك يهمش اللقمة ويعضها ويضحك ، وذلك يفتك باللحم يلته بالتوابل ويزدرده ، وواحد غمه الطعام والشراب فثقلت معدته وجاشت نفسه فانتحى الزاوية ولبد ، والظريف فى هذا الحفل أنهم كانوا يتكلمون جملة ، ويضحكون ويقهقهون بجرس واحد ، ولا يستمعون إلا إذا صاح بهم صائح جاف ، وهكذا أنصتوا للقائل بصوت أجش

لكم الله من ضيوف كثيرى الجلبة واللغط ، اشربوا واطربوا لخير الشراب ما كان كغناء المغنى يعبر عن حزن دفين وإن كان يبدو أنه يعرب عن الطرب والسرور

وقعت العبارة فى نفوس الشاربين موقع الجمرة فى الماء ، تنطفىء ولكنها تترك أثرها ، وتصعد بخارها ، وتئن أنة الموجع

كاد السكوت يسود المجلس ، ويعترى المتنادمين فتور السكير وكظة الآكل لو لم يقل أحدهم : حقاً إن الغناء تجاوب وجدانى لحزن دفين وذكريات مؤلمة كانت فى الأصل نتيجة لوقائع خاصة أو طوارىء مفاجئة طرأت على الانسان فغيرت سير حياته فجعلته رهين قيود وأسير أوهام لم يقو على التخلص منها والافلات من إسارها وعبوديتها ! !

هل وراء هذه المقدمة حديث غرام ؟

بلى يا صديقى ، حادث غرام قديم ، عبثاً حاولت الانعتاق منه وكنت إزاءه كفراشة تفتش عن طريقها فى نور المصباح وهى تجهل أنها صائرة إلى الاحتراق

ليكن حديث الليلة إذن عن الوقائع الغرامية وطوارئها ذات الأثر فى النفس ، وأحسب أن طبيعة اجتماعنا ومفاجأة صديقنا إيانا بالشراب ، ودعوتنا إلى الاشتراك معه ، على حد قوله ، فى طى تاريخ الحزن ونشر أعلام حياة جديدة على أضواء الخمرة المتلألئة مهيئة لحكاية غريبة نادرة يقصها علينا . وقد تكون حكاية تعاطيه الخمر والدخان فى شهرين فقط من شهور السنة ، أليس حدسى صادقاً يا صاحبى ؟

سكت صاحبنا ولم يشر بحركة تدل على النفى أو الاثبات

قال أحدنا : من منا لم تصدمه حادثة غرام حولت سير حياته وبدلت نظامها المألوف ؟ انما لبعض مصدمات الحب قوى عجيبة ودوافع غريبة تنتقل بالمرء من حال الى عكسه ، ويتوقف ذلك على نحيزة الانسان لا على طبيعة الصدمة

موضوع لذيذ ، إى والله إنه لموضوع مستحب ، يجانس طبيعة نفوسنا الدافئة بنار الخمر ، إنى لأقترح عليكم أيها الرفاق وكلكم لوى عنقه عن الشباب ، وطوى كشحه عن .. الكهو عفواً عفواً ، أريد أن أقول كلكم فتى القلب ، شاب الروح و .

صه يا ثرثار ، ودع عنك اللغو فليس وقته الآن

سكت ، وأنصت الجميع للراوى الأول حكاية مغامراته في شبابه وهى تحمل نطفة الموت مع جرثومة الحياة كذكور النحل ، وأنصتوا للمتكلم الثانى ، وقد أظهر وقائع بطولته فى الاغراء وانتصاراته على المرأة بالخداع ، وتكلم الثالث عن غرامياته وقد أوحت اليه نظم الشعر وتأليف الحكايات

وقص الرابع والخامس قصصاً فردية كسابقتها لا صلة لها بصميم الحياة ومشاكلها ، فلما انتهى الأمر الى صاحب الدعوة قال : أقص عليكم قصة طريفة نادرة ، فيها درس وقد لا تخلو من لذة

« يسرنى أيها الأصدقاء ، وقد دعوتكم الى الاشتراك معى بفرح وحزن لا شأن لكم بهما ، أن أطلعكم على سرهما وقد لازمانى خمس عشرة سنة ، ولأن فى الأفراح كما فى الأحزان انبثاقات من نور تهدى الانسان الى سمت الوجود ، وتجعل الحياة نفسها عذبة مشتهاة ، فاصغوا إلى قصتى واعلموا أن الحياة هى الحياة فى الفتى والشاب والكهل والشيخ ، إنما الفارق هو فى قوة الشعور وخصائص الوعى ، قد يحب الكهل بقوة وحرارة تماثلان حب الشاب ، وقد يعشق الشيخ ببراءة وسذاجة عشقاً يضارع عشق الفتى ، انما الرجل من يحتفظ بتوازنه ، فلا يشتط فى أطوار الحب وهى مرافقته ولا بد حتى اللحد ، ومن يستضىء بنور نفسه لا يضل السبيل ، وبذلك تسمده شاعريته ويفرحه روحه وينعم بلذة وجوده الانسانى »

المقدمة بارعة ، والاستهلال حسن ؛ فهات القصة فكلنا لك سامعون

« رن جرس التلفون ، تناولت السماعة وأثبتها على أذنى ، وإذا بى أسمع صوت امرأة تنادينى باسمى وتقول إنها قادمة من أمريكا لزيارة الشرق واستعادة ذكريات طفولتها فيه ، وإن اسمى فى مقدمة أسماء من وطدت الأمر على مقابلتهم ، وأنها ستكون سعيدة إذ ترانى يوم الاثنين بعد غد فى القاهرة ، فقلت لها : أنه يسعدنى لقياها الليلة فى الاسكندرية لأنى أسافر فى قطار مساء اليوم ، فأقضى نهار الأحد فيها كعادتى فى فصل الصيف ، وسألتها

بن اسمها فأجابت : ستعرف اسمي قريباً ، وقالت : إن لقياك بي ي الاسكندرية تعطل على خطة الريادة ؛ وتفسد طريقـــة الاستكشاف التي رسمتها لنفسي . فقطعت عليها الكلام وقلت مازحا : إني لست واحة في صحراء مجهولة ، وإنك لست « روزتا فوربس » تقتحم الصحارى لتصف الحياة فيها تحت أطناب الخيام ومضارب الأعراب الأشـداء ، فأجابت قائلة : أرجوك الاحتفاظ بهذه الاعتراضات إلى حين اللقاء في القاهرة ، وألا تزاحم المرأة في فضولها وبداواتها ، وودعت فانحبس الكلام

أرجعت السماعة إلى مكانها ، وأخذت أستعيد في ذاكرتي وخيالاتي نبرات الأصوات ، وصور النساء اللواتي عرفتهن ، فلم أهتد الى واحدة يوائم صوتها صوت المرأة المجهولة التي حدثتني

امرأة من أمريكا تعود الى الشرق لاشك أنها سورية ، ولقد هاجرت من سورية منذ نيف وعشرين سنة ولما أبلغ العشرين بعد ، ولم يكن لي فيها علاقة غرام بسوى فتاة حالت الحوائل دون استمرارها وديمومتها ، وأنها تزوجت برجل تقيم معه في سلام ووئام في لبنان ، فمن هي هذه السيدة المتأمركة يا ترى ؟

أف للمرأة المشـــغلة المعطلة ، لم لا أركب قطار الظهر الى الاسكندرية فأشبع ناظري برؤية البرية الخضراء المنبسطة ، وأبهج نفسي بمشهد الشمس حين المغيب ، تخضب الزاخر من موج البحر بدمها المسفوك وذهبها المذاب ونارها المتقدة ؟ ! لم الذهاب الى رئيس عملي أقف بين يديه وقفة المستجدي ، وقد يستجيب رجائي بعد أن يغمرني بفيض من المنة أو يرفض ويتأبه ويتعالى ، أ لأجل كلمات سمعتها بالتلفون من امرأة مجهولة قد تكون من المغامرات وقد تكون شيئاً آخر لا أملك وصفه أو الحكم عليه ؟ ! أمن أجل هذه المرأة أنقض قانون العمل وأعرض نفسي لما لا قِبَل لها على احتماله من الرؤساء ، أبلبل ذهني وأضني أعصابي بتفكير سخيف ، وشهوة باطلة ، وأوهام أنسج خيوطها من اللاشيء تحقيقاً لبداوات امرأة لا أعرفها وأجهل مقرها ، وقد رفضت أن تتلقاني في الاسـكندرية « كي لا أعطل عليها خطة الريادة وأفسد طريقة الاستكشاف التي رسمتها لنبش قبر « توت عنخ آمون » حي هوانا ؟ ؟ ! !

لا لا . . . سأواصل عملي حتى موعد الانصراف ثم أسافر الى الاسكندرية أقضي راحتي الأسبوعية فيها كالعادة

* **

امرأة ممشوقة العود ، عريضة الجبين ، عسلية العينين ، هدباء وادعة النظرات ، آثار صباها بادية واضحة ، وقفت هـذه المرأة تجاهي في محل عملي المكتظ دائماً بعشرات بل بمئات السيدات من كل جنس ولون ومدّت لي كفاً ناعمة الملمس ، طويلة الأصابع وقالت بصوت كسير لين أغن بعد أن تعمدت ابتسامة رقيقة بدت في ركني فمها دلالة تحرك النفس « جودمورنن » ، وضغطت على كفي بكل ما في وسع المرأة التعبير عن المودة بالمصافحة

مرحبا بك ياسيدتي الأمريكانية وأهلا بهذه الطلعة البهية ، قد رأيت صبحها منذ زمن بعيد . . . ولكن أين كان ذلك ؟ في مصر ، في الشام ، في الطريق ، في الكنيسة ، أوه أكاد أقول لا أدري ، هل لك أن تحرضي ذاكرتي على التذكر ؟ ؟ !

أحسب أن من كان مثلك في محل عملك هذا التألق بأنماط من أنواع الجمال الخليط قد تضيق ذاكرته ، فتهمل الأسماء والكنى مكتفية بالملامح والصور ، وإني لعاذرتك على نسيانك إياي وقد افترقنا بالفعل منذ زمن بعيد

— كان افتراقنا قبل ثلاثين سنة أو أزيد . أليس كذلك يا سيدتي ؟

— لا تعرف السيدات أعداد السنين التي تحصي أعمارهن بالضبط

— عفواً يا سيدتي ما الى هذا رميت ، انما لأتذكر ، ولكن أين كان افتراقنا ؟

قالت : أتذكر فلاناً . . . (وقد ذكرت اسمه) وقد كنت معه في مدرسة النهضة الأولية في دمشق ؟

قلت : نعم أذكر ذلك

قالت : هل نسيت أخته سلمى وقد كانت تمزق لك أوراق « المزامير » فتضطرك الى استحفاظ « المزمور » غيباً عن كتاب أخيها وكنت تتظاهر أمام معلم الكتّاب أنك تقرأ في الكتاب لا عن ظهر قلبك ؟

قلت : إني لذاكر ذلك ، وأحسب أنك ابنة خالتها وقد كنتما سوية في المدرسة السكوبية

قالت : كنت أخالك قوي الذاكرة قديراً على استعادة ماطبعته الطفولة في لوحة حوادثها النقية ، ولفظت عبارتها هذه برزانة وتأمل

شاعت أحاسيس مضطربة مؤلمة في جوانب نفسي فشعرت بضنى الخيبة والفشل ، وفجأة تيقظت في عوامل الانتباه بعد إذ توجه شعوري وتمركز فأصبح الخاطر الغامض واضحاً جلياً لدي ، فقلت بعد أن مررت بأطراف أصابعي على جبهتي الندية في صياح :